عظيم دولة الموحدين

عبد المؤمن بن على

نشأته — خلقه — أدبه

للأستاذ محمود البسيونى

المدرس بدار العلوم

تمهيد

قامت دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين بالمغرب ، وإنما عرفت بهذا الاسم لأنها نشأت على أساس فكرة دينية خاصة تخالف فكرة (المرابطين) ؛ فإن هؤلاء كانوا يتحرجون من البحث فى العقائد ، فلا يسمحون بالجدل ، ولا يرحمون من يخوضون فى المسائل الكلامية أو يثيرون جدلاً فى العقائد ؛ وإنما همهم المرابطة فى الثغور ، والتمسك بظواهر النصوص الدينية لا يبغون عنها حولا ، ويرون فيها السلامة والنجاة من الزلل ، ولذلك أصاب كتب الغزالى فى عهدهم ما أصابها من المصادرة ، حتى كان اقتناء كتاب منها أو التحدث برأى فيها جريمة قد تؤدى إلى الهلكة أو السجن واستصفاء المال[1]

(١) حصل ذلك فى عهد أمير المسلمين (على بن يوسف بن تاشفين) المرابطى الذى تولى عام ٤٩٣ هـ ، ولكنه مع تعصبه وشدة كراهيته لأهل الجدل والرأى لم يعمل بمشورة (مالك بن وهيب) أحد علماء دولته الذى أشار عليه بقتل (محمد بن تومرت) عقب المناظرة التى عقدت فى مجلس الخليفة بين ابن تومرت وجمهور من العلماء ؛ فقد قال (مالك) : إن ابن تومرت رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه ، وإن وقع هذا فى بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير ، وأشار بقتله ؛ فتوقف (على بن يوسف) وقال : (علام نأخذ رجلا من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ، وهل السجن إلا أخو القتل ؟ ولكنا نأمره أن يخرج من البلد وليتوجه حيث شاء) فتوجه (ابن تومرت) ومن معه إلى مدينة (سوس) وفيها ظهرت دعوته ؛ وليس عجباً أن يفتى (مالك) هذا بما أفتى وهو ممن يشاركون فى الفلسفة ، فإنه متأثر بروح العصر ، حريص على إرضاء الخليفة لا يظهر معه علومه إلا ما تروج سوقه فى ذلك الزمان

فلما قامت (دولة الموحدين) كان لها رأى غير ما يراه (المرابطون)، إذ كانت آراء (أبي الحسن الأشعرى) قد ملأت رءوس القادة والمؤسسين لهذه الدولة، ومذهب الأشاعرة مبنى على الرأى، وللجدل الدينى المنطق فيه نصيب كبير، على أن شيخ هذه الدولة (محمد بن تومرت) لم يكن يقف فى مسائل العقائد عند آراء الأشاعرة، بل زاد عليها الأخذ ببعض آراء المعتزلة: كنفي صفات المعانى، وظاهر أن مبنى هذا الرأى عند القائلين به، إثبات الوحدانية لله على أكمل وجوهها، ونفى كل مظان التعدد، لاعتقادهم أن القول بصفات المعانى وهى قديمة يقتضى تعدد القدماء.

من أجل ذلك أطلق المعتزلة على أنفسهم لقب «أهل التوحيد» وأخذ عنهم (الشيخ بن تومرت) هذا اللقب، وأطلقه على الدولة التى كان له الفضل فى تأسيسها (دولة الموحدين)

١ — كيف قامت دولة الموحدين؟

لما اضطرب أمر المرابطين فى بلاد الأندلس والمغرب، ظهر سنة ٥١٥ هـ بمدينة (سوس) من بلاد المغرب الأقصى شيخ من البربر كان ينتسب إلى الحسن ابن على كرم الله وجهه يسمى (محمد بن عبد الله بن تُومَرْت) أخذ العلم عن علماء الشرق: كالغزالى (بالشام)، وأبى بكر الشاشى من علماء الفقه وأصول الدين (ببغداد) وكان ذا دهاء عظيم، ونفوذ روحى كبير، فقام يدعو إلى الله: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان سبباً فى نشر مذهب الأشاعرة ببلاد المغرب، فالتف حوله جماهير المصامدة[1] ووجوههم وجعل يكثر من ذكر المهدى المنتظر، ثم ادعى أنه ذلك المهدى ورفع نسبه إلى آل البيت فانقاد له الناس، وما زال يحرض المصامدة على حرب المرابطين بمراكش ويبشرهم بأنهم سيملكون ملك فارس والروم، حتى قويت شوكته، وكثر جنده؛ فقاموا معه لحرب المرابطين، وأمر على الجيش (عبد المؤمن ابن على) ولقبه بأمير المؤمنين، ثم دامت الحرب بين الفريقين حتى انتهى الأمر

(١) المصامدة ولتونة: جذمان عظيمان من البربر

باختلال أحوال المرابطين ، وشهد (ابن تومرت) مصيرهم قبل موته سنة ٥٤٣ هـ

قام بالأمر بعده أمير المؤمنين (عبد المؤمن بن على) وهو من الصامدة ولكنه كان ينتسب إلى قيس عيلان العدنانية وكان مولده مدينة (تلمسان) من أعمال الجزائر سنة ٤٨٧ هـ واستوثق له الأمر بموت (على بن تاشفين) سلطان المرابطين سنة ٥٣٧ هـ فملك المغرب الأقصى والأوسط ، ثم بلاد الأندلس ، وتوفى سنة ٥٥٨ هـ

وكان عبد المؤمن فصيح المنطق جزل الألفاظ محبباً إلى كل من يراه حتى كان (ابن تومرت) ينشد كلما رآه :

تكاملت فيك أخلاق خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط

السن ضاحكة ، والكف مانحة والصدر منشرح ، والوجه منبسط

وكان قد تاقى العلم على (ابن تومرت) ولازمه طويلا واكتسب منه دهاء وفطنة ومعرفة واسعة بطريقة التأثير فى السامعين وقد دلت مواقفه على أنه جمع بين الفطنة والأدب وحسن السياسة

٢ — دهاؤه وحسن سياسته

يدلنا على دهائه وحسن سياسته ما فعله مع أمراء (بجاية) بعد ما أزال ملكهم وما فعله مع قبائل (بنى هلال بن عامر) الذين أغاروا من الشرق على القيروان فعاثوا فى الأرض فسادا ، وكان الفاطميون بمصر قد خلّوا بينهم وبين بلاد المغرب لغرض سياسى (١)

وذلك أن (عبد المؤمن) لما استقر ملكه بالجزائر ومراكش تطلع إلى مملكة الصنهاجيين التى تجاوره من الشرق ، وكان في حوزة بنى حماد الصنهاجيين شيعة الفاطميين فحاصر (بجاية) واستولى عليها سنة ٥٤٠ هـ وملك قلعة بنى حماد المشهورة ثم أسر الملك (يحيى بن العزيز المنصور الصنهاجى) وأخذه وأعيان دولته إلى مراكش وبالغ فى إكرامهم وأنزلهم منزلاً كريماً ، وبهذا قوض ملكهم ، وجعلهم جلساءه وذوى الصدارة فى مجلسه ، فأمن مكرهم وقطع آمالهم فى استرداد ملكهم

(١) لما انحرف الصنهاجيون عن مذهب الشيعة واتصلوا بخليفة (بغداد) أغرى الفاطميون بهم بنى هلال وكانوا ينزلون صعيد مصر وشرقيها وذلك فى منتصف القرن الخامس

أما بنو هلال فقد كانوا يسيطرون بجندهم على القيروان وهم الذين تغلبوا على الملك (تميم بن المعز بن باديس) من بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين [1] ثم أقلقوا مملكة بنى حماد الصنهاجيين أصحاب (بجاية) فى غربىّ القيروان حتى صالحهم ملكها (المنصور بن المنتصر) جد يحيى بن العزيز الذى أسره (عبد المؤمن) على أن يكون لهم نصف ما تغله البلاد وأقطع رؤساءهم بعض الجهات فى مملكته

فلما عزم (عبد المؤمن) على دخول الأندلس بعد اضطراب أحوالها وتطلع الافرنج إلى فتحها وإغارتهم على بعض جهاتها ، أراد أن يتقى شر بنى هلال وأن يأمن غاراتهم على بلاده إذا ماشغلته بلاد الأندلس ، وأراد فى الوقت نفسه أن يعزز جنده بصفوة من بنى هلال الذين مارسوا الحروب طويلا ، فدعاهم إلى الجهاد والسير معه إلى بلاد الأندلس ووجه إليهم هذه القصيدة :

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جُرْدَ الصواهل
وقوموا على الأعداء قومة ثائر ... وشدوا على الأعداء شدَّةَ صائل
بنى العم من عليا هلال بن عامر ... وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت إلى الغزو نية ... عواقبها موصولة بالأوائل
هى الغزوة الغراء والموعد الذى ... تنجّز من بعد المدى المتطاول
أهبنا بكم للخير والله حسبنا ... وحسبكم ، والله أعدل عادل
فما ههنا إلا صلاح أموركم ... وتستريحكم فى ظل أخضر هاطل
وتسويفكم نعمى ترف ظلالها ... عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمة ... وللمدلج السارى صفاء المناهل

فلما سمعوا منه هذه الدعوة خفوا معه سراعاً فجعلهم فى جيوشه وعبر بهم الزقاق ، وثم جعلهم جماعات ووزعهم على حصون الأندلس فاستوطنوها ، ثم أمر فيهم ابنه (يوسف) فكثرت أعقابهم بالأندلس وفيهم زُغبة ورياح وجُشَم بن بكر

(١) لما ارتحل الفاطميون إلى مصر تركوا على القيروان بنى زيرى بن مناد الصنهاجى وكانوا شيعتهم وأعوانهم

– وبهذا الأسلوب الحكيم قوّى عبدالمؤمن جيشه ، واتقى خطر بنى هلال على ملكه ؛ فأدرك الغايتين فى وقت واحد

٣ — عبد المؤمن الخليفة الأديب

لا عجب أن يكون عبد المؤمن بن على محارباً صنديداً ، فكل شىء حوله يوحى بالشجاعة ويبعث فى نفسه حب الحروب وشنّ الغارات ، ولا عجب أن يكون له ذلك الدهاء العظيم وقد تخرج على (ابن تومرت) الذى عرفنا من دهائه وعقله ما عرفنا

وإنما قد يبدو عجيباً أن يكون هذا القائد المغوار الذى قضى أكثر عمره فى الكر والفر ، ونشأ فى جو لم تتوطد فيه الثقافة الأدبية ، أديباً يقول الشعر وينقده ويزن أقدار الشعراء بميزان دقيق ؛ ولكن لا عجب ؛ فإن اتجاهه الشخصى وملازمته للشيخ (ابن تومرت) جعلا منه ذلك الشاعر والناقد البصير . فأما شعره فقد روى له صاحب (المعجب فى أخبار الأندلس والمغرب) ما وجهه لبنى هلال . وأما نقده وإدراكه قيمة الشعر فليس أدل عليهما من إيراد هذه الفقرة من (الكتاب المتقدم) مع تصرف يسير ؛ قال صاحب (المعجب) :

« خرج (عبدالمؤمن) يقصد الأندلس ، فسار حتى نزل مدينة (سَبْتة) فعبر البحر ونزل بجبل (طارق) وسماه جبل الفتح ، فوفد عليه وجوه الأندلس للبيعة : كأهل مالقة وغرناطة ورندة وقرطبة وأشبيلية ، وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له فيه وجوه البلاد ورؤسائها ، ودعا هو بالشعراء فاجتمع فى مجلسه منهم صفوة من شعراء الجزيرة وغيرهم ، فكان أول من أنشد فى مجلسه (أبو عبد الله محمد ابن حبوس) من أهل مدينة (فاس) وكان يجرى على نحو طريقة (ابن هانئ الأندلسى) فى تخير الألفاظ ذات الجلبة فأنشد :

بلغ الزمان بعدلكم ما أمّلا وتعلمت أيامه أن تعـــدلا
وبحسبه أن كان شيئاً قابلاً وجد الهداية صورة تتشكلا

ثم أنشده رجل من سلالة الشاعر الشريف الطليق المروانى فقال :

ما للعدى جُنَّة أوقى من الهرب

وهنا ابتدره (عبد المؤمن) بقوله : إلى أين إلى أين ؟

فقال الشاعر :

أين المفر وخيل الله فى الطلب ؟

وأين يذهب من فى رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب

حَدِّثْ عن الروم فى أقطار أندلس والبحر قد ملأ المبرين بالعرب

فلما أتم القصيدة قال (عبد المؤمن) : بمثل هذا تمدح الخلفاء !

ثم أنشده شاعر من أهل (أشبيلية) يعرف بابن السيد :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل وانظر إلى الجبل الراسى على الجبل!

أنى استقر به ؟ أنى استقلّ به ؟ أنى رأى شخصه العالى فلم يزل ؟

وهنا قال له (عبد المؤمن) : لقد ثقلتنا يا رجل ! وأمر به فأجلس :

ثم أنشده الوزير الكاتب (أبو عبد الله البلنسى) المعروف (بالرصافى) فقال :

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور

من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ليلاً لِسار ولم تشبب لمقرور

فيضية القدح من نور النبوة أو نور الهداية تجلو ظلمة الزور

ما زال يُقْضمها التقوى بموقدها صوّام هاجرة قوّام ديجور

نور طوى الله زند الكون منه على سقط إلى زمن المهدى مذخور

وآية كأياة الشمس بين يدى غزو على الملك القيسى منذور

ومنها يصف أسطول (عبد المؤمن) :

لما تسابقن فى بحر الزقاق به تركن شطّية فى شك وتحبير

كأنه سالك منه على وشَلٍ والأرض من مُهَج الأسياف مقطور

من السيوف التى ذابت لسطوته وقد رمى نار هيجاها بتسعير

ذو المُنْشآت الجواري فى أجرّتها شكل الغدائر فى سَدْل وتضفير

أعدى المياهَ وأنفاسَ الرياح لها ما فى سجاياه من لين وتعطير

وربما خاضت التيار طائرةً بمثل أجنحة الطير الكواسير

كأنما عبرت تختال عائمةً فى زاخر من جَدى يمناه معصور

حتى رمت جبل الفتحين من كثب بساطع من سناه غير مبهور

وهى قصيدة طويلة نكتفى منها بما تقدم . هذا وقد وجد على ظهر كتاب (الحماسة) بخط عبد المؤمن بن على هذان البيتان :

وحكم بالسيف لا تعبأ بعاقبة وخلها سيرة تبقى على الحقب
فما تنال بغير السيف مرتبة وما ترد صدور الخيل بالكتب

وإذا لم يكونا من كلامه فهما شاهد على حسن ذوقه الأدبى وتأثره فى أموره بروح الأدب العربى

وبعد فانا نستطيع أن نعتبر (عبد المؤمن) من الشعراء ذوى البصر بالشعر ونقده بعد ما سمعنا من شعره وتعليقاته السريعة الدقيقة على ما قاله أولئك الشعراء وإذا كان الشىء يُذكّر بضده فلا بأس أن أذكر هنا موقفاً لكبير المرابطين (يوسف بن تاشفين) يظهر لنا الفرق العظيم بينه وبين كبير دولة الموحدين ؟

عاد (يوسف بن تاشفين) إلى بَر العُدوة (مراكش) من الأندلس بعد ما رد الفرنجة فى المرة الأولى ، فلما أعاد الفرنج غارتهم عليها استجار به (المعتمد ابن عباد) كما استجار به أولا ، فجعل فى رسالته لابن تاشفين قول (ابن زيدون) :

بنتم وبنا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
حالت لبعدكمُ أيامنا فغدت سوداً ، وكانت بكم بيضاً لياليا

فلما قرئ عليه الكتاب هز رأسه وقال : يطلب منا جوارىَ بيضاً وسوداً !!

فلما شرَحَ له بعض مَن فى حضرته معنى البيتين قال : (جيّد) . اكتبوا إليه (إن دموعنا تجرى عليه وإن رءوسنا توجعنا من بعده) !

والآن يصح لنا أن نعتقد أنه لو استراح (عبد المؤمن بن على) من الغارات والحروب ، واستقر به الحال طويلا ، لكانتْ حياته شعلة تذكى فى نفوس الشعراء والعلماء جذوة العلم والأدب ، وربما كان عصره — لو تحقق له ذلك — فى طبقة عصُور الناصر والحكم وابن عباد

ولو لم يكن له إلا تنشئة ابنه (يوسف بن عبد المؤمن) على حب العلم والأدب حتى رَعى الفلاسفة وأبرز للعالم كفاية (ابن رشد) و (ابن طفيل) وغيرهما ، لكان جديراً بهذا وحده أن يعتبر فى مقدمة الملوك عناية بالعلم والأدب

٤ — موازنة بين عبد المؤمن بن على ويوسف بن تاشفين

هذا ولا بأس قبل ختام هـذا البحث من عقد موازنة بين كبير المرابطين وكبير الموحدين :

(ا) فهما يتفقان فيما يأتى :

١ — كلاهما كبير دولة أفريقية من البربر ، وكلاهما دخل الأندلس مدافعاً عن الإسلام .

٢ — كلاهما أزال دولة من الدول الإسلامية ؛ فكبير المرابطين أزال دولة آل عباد بأشبيلية ، وكبير الموحدين أزال دولة بنى حماد الصنهاجيين شيعة بنى عبيد

٣ — كلاهما مع ابنه يحقق معنى المثل المشهور (الولد سر أبيه) فأما على ابن يوسف بن تاشفين فقد لقى الغزالى وكتبه من اضطهاده ما شرحناه ، وأما (يوسف بن عبد المؤمن) فهو العالم الذى شهد له فلاسفة عصره ، وفى عهده نهضت الفلسفة ، وفى رعايته ظهرت كفاية (ابن رشد) فألف كتبه الخالدة فى تلخيص آراء أرسطو وشرحها

(ب) ويختلفان فيما يأتى :

١ — كان ملك المرابطين عنيفاً مسرفاً فى النكال عند ما أزال دولة بنى عباد ، فانه حملهم أسارى أذلاء وألقى بأميرهم (المعتمد) فى غيابات السجون حتى مات ، وعلى العكس منه ملك الموحدين ، فقد كان كريماً نبيلا بعد ما أزال دولة الصنهاجيين فأنزل ملكها وكبراءها منزلا كريماً بمراكش

٢ — كان كبير المرابطين مغالياً فى المحافظة والتحرج ، شديد الوطأة على الفلسفة وأهل الرأى ، أما كبير الموحدين فقد كان عالماً يحب البحث ويرتاح للعلم ويعهد بصفاته وكفايته لظهور الآراء الحرة .

٣ — الفرق بينهما شاسع فى الناحية الأدبية ، فأما عبدالمؤمن فحسبه قصيدته لبنى هلال ونقداته الظريفة لقصائد الشعراء يوم نزل الأندلس ، وأما كبير المرابطين فحسبه مسألة (الجوارى السود والبيض) !

محمود على البشبيشى